يسوع خادم البشر

بقلم المعلم الانطاكي الشماس

اسبيرو جبور

قال يسوع لتلاميذه وهم صاعدون الى أورشليم أن إبنُ الإنسان أي يسوع المسيح ما جاءَ لِيُخدَم، جاء لِيَخدِم ولِيبذُل نفسَه فداءً عن الآخرين. وفي يوم الخميس العظيم قال لتلاميذِه "أنا بينكم كمَن يخدُم" فقام عن العشاء وغسلَ أرجُل التلاميذ ونشّفَها وقال لهم أعطَيتُكم قدوَةً ليغسُل بعضُكم أرجُلَ بعضٍ.

المسيح نصّبَ نفسَه خادماً لنا. والخدمةُ الكُبرى والأعظم هي أنّه تجسّدَ وإرتفع على خشبة الصليب لِيُقدِّمَ نفسَه للآب بالروح القدس ذبيحةً لنأكلَ ونشرب من هذه الذبيحة لمغفرة الخطايا ولنَيل الحياة الأبديّة.

إضّجَعَ في قبرٍ، والقبرُ هو مائدةُ المسيحيّين لأننا نأكلُ خروفاً فِصحيًّا حيًّا.

قام المسيح من بين الأموات. ولذلك فِصحُنا ليس يوم الجمعة يومَ نُحِرَ المسيح على الصليب ولكنّه يوم الأحد لنأكلَ خروفاً فصحياً حيًّا مشوياً بالروح القدس، لا خروفاً ميتاً مشوياً بنارٍ عاديَّة. صارَ لأجلِنا ذبيحةً لنأكلَه ونشرَبَه.

في خدمة القداس الالهي يقول الكاهن " أيها الربّ يسوع المسيح إلهنا، إصغَ من مسكنك المقدّس ومن عرش مجدِ ملكِكَ، وهلمَّ لتقديسِنا أيها الجالس في الأعالي مع الآب والحاضر معنا ههنا غير منظور. وارتضِ أن تُناوِلَنا بيدِكَ العزيزة، جسدَكَ الطاهر ودمَكَ الكريم، وبنا شعبك كلَّهُ " فاذن الذي يُناولُنا هو الربُّ يسوع.

قال يوحنا المعمدان في يسوع المسيح أنه سيُعمِّدُنا بالماء والروح القدس والنار. ولذلك في المعمودية الأرثوذكسية لا يقول الكاهن "أُعمِّدَك"، إنما يقول "يُعمَّد عبدُ الله فُلان بإسم الاب والإبن والروح القدس" أي أن المعمِّد هو الله والإنسان هو واسطة.

وفي القربان المقدّس يقول الكاهن "يُناوَل عبدُ الله فلان جسد ودم ربِّنا يسوع المسيح". فإذن كما جاء في العبرانيين " هو المقدِّس والمقدّس" ونحن المقدّسون وهو الذي يُقدِّسُنا. ليس الكاهن هو الذي يُحوِّل القرابين الى دم وجسد الرب، بل الآب السماوي الذي يُرسِل روحَه القدوس ليُحوِّل القرابين الى جسد ودم الرب. نحن نتناول المسيح له المجد.

خروفُنا الفصحيّ وذبيحةُ الصليب ما كانت مرةً واحدةً في التاريخ، هي مستمرّةٌ الى أبد الآبدين. وخدمة القداس تُقامُ في بعض الأمكنة كلّ يومٍ لتكون الذبيحةُ الحيّةُ قائمةً بيننا الى الأبد طعاماً وشراباً للمؤمنين لمغفرة الخطايا وللحياة الأبدية.

فيسوع الذي كُسِرَ على الصليب، هو اليوم يُكسَر ويوزّع على المؤمنين بدون أن يتفرّق. فيتناول كلٌ واحدٍ من المؤمنين الجسد والدم الالهيّين التامَّين، كيف؟ هذا سرٌّ الهِنا له المجد. في كلِّ دنيا المسيحية تُقامُ خدمة القداس عل الأقل يوم الأحد فيتناول المؤمنون في مشارق الأرض ومغاربها.

يسوع المسيح هو الذبيحة الحيّة الأبدية لمغفرة الخطايا والحياة الأبدية، هذه هي الخدمةُ العُظمى. عندما خدَمَ المائدة في يوم الخميس العظيم وغسلَ أرجل التلاميذ، ما كان ذلك إلا تقدمةً للخدمة الكبرى وهي خدمة ذبيحة الصليب. فيسوع على الصليب هو ذبيحةٌ حيّةٌ لخدمة المؤمنين، للفداء، لمغفرة الخطايا، لخَلق إنسانٍ جديد مغتسل بدم المسيح، مولود بدم المسيح المحيي الذي يُعطينا الحياة الأبديّة هنا على الأرض مؤقتاً.

بذبيحة الصليب نحن منذ الآن مُخلّصون ريثَما ننتقل بالموت من هذه الدنيا الفانية الى الدنيا الخالدة.

المسيحيُّون يأكلون فِصحَهم يوم الأحد فينتقلون من الأرض الى السماء، ومن الموت الى الحياة مع يسوع المسيح ويجلسون معه في الأعالي عن يمين الآب. هذه هي الخدمة العُظمى وكلُّ خدمةٍ أُخرى هي ظِليَّة ومؤقّتة، هذه هي خدمةٌ أبدية.

نأكلُ من ذبيحة الصليب فنحيا الى الأبد. يسوع هو خادمُنا الأعظم. حمَلَنا على منكِبَيه أي على طبيعتَيه الالهية والبشرية. ضمَّ الأطفال الى صدرِه فوضعَ الكون كلّه في قلبه فصِرنا فيه أعضاءٌ في جسدِه. صِرنا إيَّاه لأنه صار إيَّانا كما يقول الذهبي الفم " صرتُ إيَّاكم لتصيروا إيَّايَ " صارَ إنساناً لنصيرَ نحن المسيح، صار الاله إنساناً ليصير الإنسانُ إلهاً.

هذه هي الخدمة العُظمى. غَسْلُ الأرجُل نموذج فقط.

الخِدمة العُظمى هي أن يسوع له المجد جعَلَنا في قلبه، جعَلَنا في صميمِه، صِرنا وإيّاه جسداً واحداً كما يقول بولس في أفسس الإصحاح 3 العدد 6. فاللفظة اليونانية " Sysoma " قويّة جداً أي صِرنا وإيَّاه جسَداً واحداً.

إفتدانا بدمِه الكريم فغَفَرَ خطايانا. والفداءُ في الأرثوذكسية ليس فقط فداءً على الصليب لمغفرة الخطايا. في رسالة أفسس كلمة الفِداء هي ذاتُ مَعنَيَين: مَعنى مغفرة الخطايا ومَعنى الفِداء في اليوم العظيم في القيامة.

هكذا خدَمَنا يسوع خدمةً الهيّة لا خدمةً أرضيّة. ضمَّ إنسانَنا الساقط الى أُلوهَتِه ففسحَ المجال لكلِّ واحدٍ منا أن يصيرَ بالمعموديّة عضواً في جسدِه.

فاذن الخدمة هي جزءٌ لا يتجزّأ من ربّنا يسوع المسيح. هو خادِمنا الأعظم. هو الذي صار الذبيحة وهو الذي يُناولنا هذه الذبيحة. هو كلُّ شيءٍ، هو المعطي زهوَ العطيّة في آنٍ واحد. يا للسرِّ العظيم!

هذا العطاء الكبير على الصليب وفي القبر، ما هو إلا النموذج الحقيقي لحياة الإنسان المسيحي لكي يُعطيَ ذاتَه، لكي يخدمَ الآخرين، لكي يكون ذبيحةً عن الآخرين، لكي يَفتدي الآخرين ولكي يخدم الآخرين بكلِّ طاقاتِه.

العالم اليوم كبيرٌ جداً والأرض تَعجُّ بالبشر. التطوُّر التاريخي أدّى الى ضرورة إنشغال الناس جميعاً بالحياة اليوميّة، فصار الناس جميعاً وحتى الأطفال تقريباً مضطرِّين للعمل ليكسبوا قوتَهم. هذا يتطلّب التعامل مع الآخرين ولو بنسبةٍ معيَّنة. لذلك، فبدون أن ننتبه الى وظيفتِنا في عالم اليوم، فنحن في الحقيقة نخدُم بعضُنا بعضاً.

البشر بحاجة الى الخَدَمات الطبيّة والإنسانيّة وسوى ذلك فاذن الناسُ مُتكاتفون متضامنون شاؤَوا أم أبَوا. فكيف نواجِه الواقع اليومي؟ هل نواجهُه بالمحبة واللطف وشكر الله على كلِ ما أَعطانا من ظروف لنعمل ولنكسب معيشَتنا؟ هل نشكر الله على وجود دُوَل وأَفراد يؤَمّنون للناس العمل؟

المؤمن الحقيقي يجد في كلِّ ذلك مناسبةً ليشكر الله الذي يؤمِّن القوتَ للبشر ولو بنسبةٍ ضئيلة لأكثريَّتهم. فنشكر الله على أن الناسَ يستطيعون العيش في هذه العلاقات البشريّة المتنامية. هل نعيشُ المسيح؟ المسيحُ صالحٌ لأن يتجسّد في عالم اليوم بسبب تمام العلاقات البشرية والإقتصادية والمعاشية. المسيح صالحٌ لكي يكون موجوداً في المكاتب والمعامل والجامعات والمدارس وكل تفرُّعات المجتمع البشري.

ولكن، هل يُفكِّر البشر في يسوع المسيح؟ هل يرَوا يسوع المسيح في هذا الواقع؟ هل يرَوا في بعضِهم البعض يسوع المسيح؟ المشكلة اليوم هي الإنشغال بالحياة اليوميّة بدَلَ أن نرى يسوع المسيح في حياتِنا اليوميّة. هل يتصرَّف الأطبّاء والممرِّضات في المستشفى والمستوصفات كملائكة يخدمون البشر؟ هل يتصرَّف الموظّفون في مآوي العجَزَة والمياتم ودور المعوقين كملائكة؟

العنايةُ بالإنسان هي مناسبةٌ كبيرة لتمجيد الله عمليّاً بالعمل لا بالقول، ليكون الإنسانُ مسيحياً بالفعل لا بالهوية والكلام والثرثرة. عالمنا اليوم يَشغُلُنا عن المطالعات الروحيّة والتأمُلات الروحيّة بنسبةٍ ما ولكنّه عاجزٌ عن مَنعِنا من التفكير الالهي وكلُّ ظروف الحياة للتأمل الروحي. نرى من البشر يومياً ما نرى في أمكنة العمل، الشوارع، المحلات، وسائل النقل، فهل نحمد الله على هذا الوجود؟ هل نفرح برؤيتِنا الناس في الأماكن المزدحمة؟ الإنسان هو غائبٌ عن وجودِه الحقيقي. ما عليه إلا أن ينظر من حولِه ليُمجّدَ الله في البشر وفي الطبيعة، ولكنه غائبٌ عن نفسِه.

في كلِّ ظروف الحياة المعاصِرَة نستطيع أن نجدَ مناسبةً للعمل بتقوى الله. يكون الإنسان في عملِه صادقاً مستقيماً مخلصاً مجاهداً شاكراً الله على وجود مهنةٍ له، مُراعياً زملاءه في العمل ورؤساءَه بلُطفٍ وشكرٍ وإيمانٍ عميق لله الذي صَنَعَ الأشياء كلّها ورتّب الأمور ترتيباً جميلاً.

هل يلمَسُ أحدُنا يد الآخر بتقوى الله لتمجيد الله؟ هل نرى في المفتكرات العلميَّة التي تؤمِّن لنا حاجات متطوِّرة أو متجدِّدة مجداً لله؟

الإنسانُ غائبٌ عن الله، غائبٌ عن ذاتِه، غائبٌ عن الكون. هو دائماً في إنهماكٍ كبير ولكن هذا الإنهماك الكبير في العمل وسواه لا يمنعُنا من أن نشكر الله على كلِّ شيء في ربِّنا يسوع المسيح.

المناسبات عديدة لكي نخدُم البشر ولِكَي نُساعد الضعفاء، لكي نساعد البشر الذين عضَّهم الدهرُ بنابِهِ ولكي نُساعدَ الناس الذين ما إستطاعوا أن يُواكبوا العصر لأسبابٍ صحيَّة أو إقتصاديَّة او سوى ذلك، فهؤلاء يحتاجون الى خدماتِنا. كيف نخدم الآخرين؟ كيفَما تحرَّكنا نستطيع أن نجدَ إنساناً ما بحاجةٍ الينا. قد نَعثُر على إنسانٍ مضطرِب البال نستطيع أن نخدُمه بكلمات التعزية أو قد نرى إنساناً مريضاً يحتاج الى كلماتِ التعزية والتشجيع. كلُّ هذا عملٌ عظيمٌ جداً. فالناس جميعاً منكوبون بنِسَبٍ مختلفة ويحتاجون الى التعزية والتشجيع والعناية روحيّاً ونفسيّاً وماديّاً.

الذي يسعى الى يسوع المسيح يرى في كلِّ هذا الكون مجالاً لِخدمة الآخرين، والكنيسةُ موجودةٌ لخدمةِ البشر. الكنيسةُ توصِلُنا الى الحياة الأبديَّة ولكن لديها إمكانات متنوِّعة لكي تُساعد البشر روحيّاً ونفسيّاً وإن قَضَت الظروف مادياً ايضاً. الكنيسة في الأساس هي العينُ الساهرة في المجتمع، فالدولةُ تهتمُّ بالظاهر أما الكنيسة فهي تهتمُّ بالداخل. الكنيسة تعيشُ مع البشر، تعيشُ أفراحَهم وأتراحَهم، تتحسَّس لمطالبِهم، الكنيسةُ غَيرةٌ الهية على البشر. الربُّ يسوع طعنَ بالفريسيِّين لأنهم رجال دين مزيَّفون ولكن الكنيسة هي بريئة من التزييف. الكنيسة هي أمُّنا الحنون ومربيَّتُنا الصالحة، واذا وقعَ العجزُ هنا أو هناك فالخطأُ خطأ البشر لا خطأُ الكنيسة ولا خطأُ الاله. الكنيسةُ بشرٌ على الأرض، مُعرَّضون للزَلَل والإهمال والأخطاء والتواني ولكن هذا لا يمنع من قيام أُناس صالحين في الكنيسة. في الكنيسة عُمّالٌ أوفياء مُخلصون يُضَحُّون بأنفسِهم من أجل الرعية، يخدمون الرعية بإخلاصٍ ومحبة.

علينا أن ننظر الى الخَدَم الصالحين، لا فقط الى البعض المهمِلين. الشعب هو الذي يُعطي الكنيسة العُمَّال الصالحين. الأُمَّهات هنَّ اللواتي يُعطينَ العسكر للكنيسة، أي الأُمهات الصالحات التقيَّات الفاضلات الأمينات المخلصات ليسوع المسيح واللواتي يحملنَ صليب يسوع في قلوبِهِنَّ، هؤلاء الأُمهات هنَّ اللواتي يُقدِّمنَ الجنود

للكنيسة. لا يخلو الزمانُ منهنّ. قد يكون الإهمال هنا وهناك ولكن يوجد دائماً أمّهات فاضلات تقيَّات يُقوِّمن أولادهنّ تقويماً سليماً لخدمة الكنيسة.

المسألة ليست مسألةَ مكانيّة، المسألة هي عالميّة. علينا أن لا ننظر الى الكنيسة بمنظارٍ ضيّق. الكنيسة موجودة في العالم كلّه فلننظُر اليها ككُل. الكنيسة جامعة تهتمّ بالكَون برُمّته، هي مكانيّة بصورةٍ نسبية ولكن الكنائس المكانيّة هي جزءٌ من الكنيسة الجامعة فلا تنحصر الأرثوذكسية في قريةٍ من قُرى مشرقُنا او مدينة من مُدُننا.

علينا أن نتخلّص من هذه النظرات الضيّقة، من هذا الفِكر الضيّق المحدود وعلينا أن ننظر الى الكنيسة ككل في العالم كلّه، وأن نهتم بها ككل.

علينا أن نشعر أن ألمَ مسيحيٍّ في الاسكا هو ألمُ كلُّ واحدٍ منّا وأَن مجدَ الأرثوذكسيِّين في الاسكا هو مجدُ كلِّ واحدٍ مِنّا. فمَتى تمجّدَ مسيحيٌّ في مكانٍ ما في هذا العالم، تمجّدْنا نحن هنا. ليس المجدُ محصوراً بصاحِبِهِ فقط. المجدُ هو مجدُ الكنيسة ومَن يتمجّد من أبناء الكنيسة يُمجّدُنا جميعاً معَهُ، ونحن قائمون بفضلِ صلوات القدِّيسين وبرَكاتِهم الذي يحطاطوننا كملائكةٍ حُرّاس يحرسونَنا في الليل والنهار.

علينا أن نُحطِّم التفكير الضيّق المحدود المحلّي القَومي وأن ننظُر الى الكنيسة ككلٍّ عالميّ. يعيش يسوع المسيح معَنا، فكلُّنا أعضاءُ في جسدِ المسيح ولذلك نتمجّد معاً ونخسَر معاً. فإذن، يسوع المسيح هو الخادم الأمين وهو الصورة الحقيقيّة لكلِّ خادمٍ أمين، وكلُّ خادمٍ أمين ليس سوى ظلاًّ لربّنا يسوع المسيح.

فلِنَكُنْ نحن ايضاً ظِلاً له لنتمجّد معه بمَجدِه. الخِدمةُ شرفٌ عظيمٌ ولكن يجب أَداؤُها بتواضعٍ وبمحبةٍ ولُطفٍ ووداعةٍ وإنسحاقٍ وعطاءٍ سخيٍّ وبَذل لا حدودَ له.الخِدمةُ تُقدّس الإنسان المسيحي وخاصّةً في الأَديرة.

الراهب الذي يُجيدُ الخِدمة بشرفٍ وتقوى وسُجود وإنسحاق، ينال الملكوت سريعاً ويكون إبن الملكوت الحقيقي.

هناك أخطارٌ تُحيطُ بالخدمة. قد يكون الإنسان أنانياً فلا يُعطي نفسَه مئة بالمئة. قد يخدم للإفتخار، لكَسب الأصدقاء، للمظاهر الفارغة، للكبرياء، للعجرفة. قد يضجر، قد يتململ، قد يُمَنّن، هناك مَن يُمنّنون ولو أعطوكَ إبرةً. الكبرياء والعجرفة والتباهي عيوبٌ وأخطارٌ تُحيط بالخِدمة. الخِدمةُ البارّة تحتاج الى التواضع والإنسحاق واللطف والرِفق والمعاملة الحسَنة وحِسن الإلتفاتة والإخلاص والتفاني. هذا مهمٌ جداً. الذي يخدم وهو يتذمّر ويشكو ويُمنّن، يُمنّن الناس برغيفٍ من الخبز كأنه يُقيم الأموات، فخِدمتُه مَعيبة.

المعطي الحقيقي هو المعطي المتهلِّل كما علّمَنا بولس الرسول. الخادم الحقيقي هو الخادم الذي جعَلَ يسوع المسيح دربَه، فسارَ في خُطاه. هناك الضجر والمَلَل في الخِدمة والإنتفاخ وما أكثر الناس الذين يضربوننا بالمَنّة.

ربي والهي يسوع المسيح أَصلِح البشر. الإنسانُ غريبٌ. كيف يُلوّث عمل الخدمة بالتباهي، بالإفتخار، بالتكبُّر، بالتعجرف وبالمَنّة. البخيل سيّد مَن ضرَبَ بالمَنّة. هؤلاء النماذج موجودون في المجتمع. ينتفخون بذاتِهم، بآبائهم وأجدادِهم ويدّعون المفاخر. الخادم الحقيقي هو المتواضع الوديع مثل ربِّنا يسوع المسيح.

على كلِّ حال لا شك أن في الخدمة صلاح وعمل محبة، هذا في الأساس. هناك العيوب التي تلتصق بتصرفات الإنسان وهذا الشيء موجود وما علينا إلا أن نتخلّص منه لأن الخدمة عملٌ مقدّس جداً. يبقى على الإنسان أن يُحسِن التصرُّف فيخدم الآخرين بقلبٍ كبير واسع، رَحِب، مُهلِّل، فلا يخدم وهو فاترُ القلب. الخدمة تحتاج الى النَخوَة والحَمِيَّة والحرارة.

الخادم الحقيقي يخدم الآخرين بطواعية لا كُرهاً، بدون تذمُّر، بروح المسيح. وهذه الخدمة هي وسيلةٌ كبيرة للتقديس لأن الإنسان يتقدّس بخِدمة الإخوة. وأيُّ شيءٍ أحلى من خِدمة الإخوة بإبتهالٍ وفرحٍ وغِبطة؟ ولكن مع الأسَف الشديد، سلبياتُ الإنسان الساقط هي أكثرُ من إيجابيّاتِه. في تصرُّفات الإنسان مزجٌ للخير بالشر. يبقى أن يسعى الإنسان لتطهير الخير من الشر، لتحسين حالاتِه الداخليّة في باطِنه ليجرى الخيرُ منهُ جَرياً طبيعياً، ليكون الخير لديه طبيعةً ثانيةً. الخدمةُ وسيلةٌ كبيرة ليصيرَ الخيرُ فينا طبيعةً ثانيةً. في الخدمة تنسحق الكبرياء والإحتقار والغضب وتنمو المحبة. مَن يخدم الآخرين يفتح صدرَه للآخرين. هذا مبدئياً ولكن المساوىء موجودة.

يبقى أن نعلم أن الخِدمة عملٌ مقدّسٌ صالحٌ ليجعلَنا قدّيسين كما أن المسيحَ الهنا هو قُدُّوسٌ على ما جاء في بطرس الرسول " كونوا قدّيسين كما انا قُدُّوسٌ ".

في الخدمة نستطيع الى حدٍّ كبير أن نكون قدّيسين مثل القدوس الأوحد لربِّنا يسوع المسيح له المجد والإكرام مع أبيه وروحِه القدوس الى أبد الآبدين ودهر الداهرين آمين.